ملاك الخداع الجاسوس الأفضل لإسرائيل عمل في خدمة مصر

يديعوت أحرنوت

رونين بيرجمان ويوفال روبوفيتش

نُشر بتاريخ: ٢٥/٠٩/٢٦ |

حتى اليوم يُعتبر أشرف مروان ("الملاك") أفضل جاسوس حظي به جهاز الاستخبارات الإسرائيلي على الإطلاق، ذاك الذي استمعت إليه الحكومة بأكملها والذي حذّر من حرب يوم الغفران. حتى الشبهات التي أثيرت على مرّ السنين بأنه كان في الواقع عميلاً مزدوجًا رُفضت بشكل قاطع. غير أن تحقيقًا موسعًا لملحق "7 أيام"، يستند إلى آلاف الوثائق السرية التي لم يُكشف عنها من قبل وإلى مقابلات نادرة مع أشخاص شاركوا في العملية، يكشف أن "الملاك" كان رأس الحربة في خطة الخداع المصرية قبل الحرب وأثناءها – وأنه نجح بما يفوق كل التوقعات. سلسلة من الإخفاقات الجسيمة في تشغيله، مضافًا إليها الكثير من الغرور في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلي، جعلت من مروان واحدًا من أخطر العملاء الذين عملوا ضد إسرائيل. فهل الآن، بعد 7 أكتوبر، سيتم أخيرًا استيعاب الدرس من قضية "الملاك"؟

الفصل الأول: تمهيد

رجلنا داخل عقل السادات

"خوتيل"، "سجال"، "نبوخذ نصر": لأشرف مروان، أهم جاسوس شغّلته إسرائيل في مصر منذ عام 1970، كانت هناك عدة أسماء كود في جهاز "الموساد"، معظمها بهدف تضليل المخابرات المصرية. لكن داخل الموساد كانوا يطلقون عليه ببساطة "الملاك". ولم يكن ذلك اعتباطًا: فقد اعتُبر مروان جاسوسًا من الأحلام، "حدثًا لا يتكرر سوى مرة في العمر"، كما وصفه مسؤول سابق في الموساد كان مشاركًا في تشغيله بعد حرب يوم الغفران. جاسوس بدا وكأنه هبط على الموساد من السماء.

كمية الوثائق والمعلومات السرية التي جلبها "الملاك" من قمة هرم السلطة المصرية – العدو الأكبر والأقوى لإسرائيل آنذاك، ما يشبه إيران اليوم – كانت لا تُصدَّق. جبال من الوثائق والمعلومات التي سلّمها لإسرائيل تم التحقق منها وتقاطعها مع مصادر أخرى. معظمها اجتاز كل اختبار. "أفضل جاسوس للموساد على الإطلاق"، هكذا قيل عنه.

بعد مرور خمسين عامًا على حرب يوم الغفران، وفي حفل خاص أقيم في حديقة مقر الموساد، وصفه رئيس الموساد دافيد برنيع بأنه "عميل رائع". وأضاف: "كانت لدينا مصادر بشرية ممتازة، والأهم والأرفع بينها كان 'الملاك'". أما الادعاءات التي أثيرت عبر السنين بأنه كان عميلاً مزدوجًا فقد رفضها برنيع رفضًا قاطعًا، مؤكدًا أن الموضوع دُرس مرارًا من قبل الجيش والموساد، وأن الجميع توصّل إلى الاستنتاج ذاته: "الملاك كان عميلاً استراتيجيًا". وأردف: "لقد راجعتُ الأمر مجددًا. بعد قراءة كل التقارير ذات الصلة، أستطيع أن أقول بكل ثقة – بقدر ما أستطيع الحكم – إن أشرف مروان كان عميلاً مهمًا للغاية. كل من يدّعي خلاف ذلك، في رأيي، إما يبحث عن شهرة أو لا يفهم شيئًا في الصورة الاستخباراتية ولا في عالم التجسس البشري".

وفي إشارة واضحة إلى أخطاء الاستخبارات العسكرية عام 1973، قال برنيع: "علينا ألا نسقط في فخ المفاهيم المسبقة. اليوم أيضًا نشعر بالقوة وعمق المعرفة والقدرات العظيمة – لكن المطلوب الآن هو التواضع الاستخباراتي والشك البنّاء". وكان ذلك قبل فترة قصيرة من 7 أكتوبر، الإخفاق الأكبر للاستخبارات منذ هجوم يوم الغفران.

وبالفعل، ظل "الملاك" في الموساد حتى اليوم أسطورة استخباراتية. في مطلع سبتمبر 1973، كان مروان في التاسعة والعشرين من عمره فقط، لكن تأثيره على الاستخبارات الإسرائيلية وخاصة على تسفي زامير، رئيس الموساد آنذاك، كان في ذروته. رئيسة الوزراء غولدا مئير، التي منحت ثقتها الكاملة في "الملاك"، كانت تسأل في الاجتماعات المغلقة: "وماذا يقول صديق تسفيكا عن ذلك؟". وما يقوله "صديق تسفيكا" كان يُعتبر يقينًا. وقد روى زامير في مذكراته أن "وجود مروان في اجتماعات السادات مع الجنرالات جعلني أدخل غرفة النقاش – وكأنني كنت حاضرًا فعليًا".

إذا كان هناك من لا يزال يشك في مصداقية "الملاك"، فإن الأمر تبدّد في أغسطس 1973. في ذلك الشهر نقل "الملاك" إلى مشغّله في الموساد تقريرًا خطيرًا: معمّر القذافي، زعيم ليبيا، يخطط لهجوم ضخم ضد إسرائيل. كان القذافي يسعى للانتقام بعد أن أسقط سلاح الجو الإسرائيلي في 21 فبراير 1973 طائرة ركاب ليبية دخلت عن طريق الخطأ المجال الجوي الإسرائيلي فوق سيناء. خشية أن يكون انتحاريًا يريد الاصطدام بمفاعل ديمونة، جرى إسقاط الطائرة وقُتل 108 من أصل 113 راكبًا.

غاضبًا، جنّد القذافي خلية من الفدائيين الفلسطينيين حصلت من مصر على صواريخ "ستريلا" المحمولة على الكتف ضد الطائرات، وتلقّت تدريبات عليها. وكان الهدف إسقاط طائرة "العال" تقل مئات الركاب أثناء إقلاعها من روما نحو إسرائيل. لكن إسرائيل كان لديها "ملاك" على كتفها: لم يكتفِ بمعرفة الخطة، بل كان هو نفسه المكلّف من الرئيس أنور السادات بتنسيق العملية الانتقامية مع الليبيين والفلسطينيين. حتى إنه سافر بنفسه إلى روما لتسليم الصواريخ للمسلحين. وهكذا كان في الموقع المثالي ليبلغ إسرائيل بالمؤامرة.

تتبّع رجال "قيصرية"، وحدة العمليات في الموساد، خطوات مروان حتى نقطة التسليم، ثم تتبعوا أفراد الخلية والصناديق الملفوفة التي خُبئت فيها الصواريخ. وقبل أن يتمكن المسلحون من تنفيذ خطتهم، تدخّلت قوات خاصة إيطالية وألقت القبض عليهم. عندها استطاع رئيس الموساد زامير أن يُبلغ بفخر رئيسة الوزراء مئير بأن حياة مئات الإسرائيليين أنقذت بفضل عميله المتميز ومعلومة الذهب التي زوّدهم بها. لقد بلغت مصداقية "الملاك" عنان السماء؛ وأصبح كثيرون في مجتمع الاستخبارات على قناعة أنه سينذر حتمًا في الوقت المناسب إذا ما اندلعت الحرب.

ومنذ بداية تلك السنة، أغرق مروان الموساد بتقارير عن حرب وشيكة، أحيانًا مع تحديد موعد دقيق. ثم يعود ليبلغ أن الحرب تأجلت؛ ثم يحدّد موعدًا جديدًا؛ ويقول أحيانًا إن السادات مصمم على الحرب؛ وأحيانًا يصفه بأنه يثرثر بلا جدوى. وهكذا مرارًا.

في 26 و27 أغسطس 1973، أي قبل أيام من سفره إلى روما لتسليم صواريخ "ستريلا"، شارك مروان في اجتماع حاسم جمع بين السادات والرئيس السوري حافظ الأسد في دمشق. في نشرات الأخبار بالأبيض والأسود من تلك الفترة ظهر بكامل قامته الفارعة، أنيقًا كعادته، يسير خلف السادات على درج الطائرة. بطبيعة الحال، سأله الموساد عمّا دار في اللقاء، ولم يخيّب "الملاك" ظنّهم. المعلومات التي نقلها في مطلع سبتمبر عن ذلك الاجتماع ستغير مجرى التاريخ.

وككل تقاريره، وُزّعت هاتان أيضًا بتعميم واسع لكل الجهات المعنية، وعلى رأسها رئيسة الوزراء ووزير الدفاع. قال "الملاك" إن "السادات يواصل الحديث عن الحرب، هذه المرة في نهاية 1973، لكنه هذه المرة أكثر تكتمًا في تصريحاته". وأضاف أن السادات أمر بملء مخازن الطوارئ سرًا حتى نهاية 1973. وبالنسبة للرئيس السوري؟

"الأسد وافق على الموعد الذي حدده السادات لبدء الحرب ضد إسرائيل (نهاية 1973) ووعد بأن تفتح سوريا جبهة الجولان في الوقت نفسه".

بمعنى آخر، أفاد مروان أن الاستعدادات للحرب ستكتمل فقط بنهاية 1973، وعندها ربما – فقط ربما – تندلع. ولماذا "ربما"؟ لأن "الملاك"، الذي كان يدرك جيدًا مدى تأثيره على القيادة الإسرائيلية، أضاف "تقديره الشخصي". فجاء في تقرير مشغّله: "برأي المصدر (أي 'الملاك') لا يجب أخذ تصريحات السادات عن الحرب على محمل الجد... المصدر مقتنع أن السادات يريد البقاء في منصبه لثلاث سنوات إضافية على الأقل دون حرب... وحتى الجيش [المصري] بات مقتنعًا أكثر فأكثر أن السادات لن يقاتل، وإذا قال لضباطه ستكون هناك حرب فلن يصدقوه 'حتى يروا النار'".

إذن، الجاسوس الأكثر موثوقية للموساد، وبعد لحظات من إحباط هجوم كان سيقتل مئات الإسرائيليين، يقدّم تقريرًا عن اجتماع في دمشق يفيد أن الرئيسين اتفقا على تأجيل الحرب حتى نهاية السنة، وأن الاستعدادات لن تنتهي قبل ذلك، بل ويضيف أن السادات على الأرجح لن يهاجم أصلًا. في إسرائيل، التي كانت بالفعل متأهبة للحرب بفضل "الملاك"، تنفّسوا الصعداء. هناك نصف عام للاستعداد، وحتى حينها "الملاك" يعتقد أن السادات لن يفعل شيئًا. لكن ما لم يعرفوه كان شيئًا واحدًا:

أنه بعد كمية كبيرة من المعلومات الصحيحة التي زوّدهم بها – هذه المرة كان "الملاك" يكذب. كذبًا كان جزءًا لا يتجزأ من خطة الخداع.

كان ذلك كذبًا رهيبًا، سيُسهم في أكتوبر 1973 مساهمة حاسمة في الإخفاق الذي كلّف حياة نحو 2,400 جندي إسرائيلي، وخلّف شرخًا عميقًا غيّر وجه إسرائيل إلى الأبد. لقد كان "الملاك" يعلم جيدًا أن السادات والأسد لم ينويا الانتظار حتى نهاية العام، بل إنهما حدّدا في ذلك الاجتماع نفسه تاريخ اندلاع الحرب: السادس من أكتوبر 1973. يوم الغفران، عام 5734.

في الشهر التالي، شارك "الملاك"، بصفته مساعدًا مقربًا من السادات، في اجتماعات مع القيادة المصرية وكبار المسؤولين في العالم العربي، حيث أُغلقت كل التفاصيل الخاصة بالهجوم المفاجئ المشترك. لكنه لم يُخبر الموساد بشيء عن ذلك. وبما أن مروان قال إنه لن تكون هناك حرب قبل نهاية العام وحتى حينها الأمر غير مؤكد، فقد اصطفَّ الموساد كله، ومن بعده جهاز الأمن والحكومة، وراء هذا التقييم هذه.

في 24 أيلول/سبتمبر، وفي جلسة خاصة لهيئة الأركان العامة التي ناقشت خطر اندلاع حرب محتملة، قدّم زامير التقدير المطمئن للموساد بأن الحرب "غير متوقعة قريبًا"، بل في الواقع "لن تندلع خلال العام المقبل".

غير أنه من الصعب جدًا إخفاء التحضيرات لهجوم مصري–سوري مشترك، ومع ذلك بدأت تتراكم في شعبة الاستخبارات العسكرية "أمان"، وخاصة في الموساد، تقارير مقلقة أكثر فأكثر بأن شيئًا ما يحدث. اثنان من كبار عملاء الموساد الآخرين أبلغا أن الحرب على الأبواب، وأنها ستبدأ بخدعة وكأنها مناورة عسكرية، ثم تتحول فجأة إلى هجوم حقيقي. لكن بما أن "الملاك" قال إنه لا توجد حرب قريبة، تعاملت "أمان" والموساد مع تلك المعلومات المتناقضة باستخفاف ولم يمرروها إلى رئيسة الوزراء ووزير الدفاع.

"كانت تلك معلومات، في الظروف العادية، تُلزم إسرائيل بأن تتعامل معها بجدية وقلق، وتستدعي حالة تأهب وربما حتى تعبئة الاحتياط. لكن لم يُتخذ أي إجراء"، قال اللواء شلومو غازيت.

غازيت، الذي عُيّن رئيسًا لـ"أمان" بعد الحرب، لم يكن له علاقة بالإخفاق، ويُعتبر من أفضل من شغلوا المنصب. وفي أحاديثه عن القضية مع رونين بيرغمان – والتي سمح بنشرها فقط بعد وفاته – قال: "القرار غير الواعي الذي تبنّته القيادة السياسية والأمنية العليا كان واضحًا وحاسمًا: طالما لم تصل معلومة تحذيرية من أشرف مروان، جرى تأجيل التعامل مع الكمّ الكبير والمقلق من المعلومات الواردة من باقي مصادر الاستخبارات. لولا اعتمادنا على مروان، لا شك عندي أننا كنا سنستدعي قوات الاحتياط في وقت أبكر. مروان زُرع في عمق الاستخبارات

الإسرائيلية، وجنّد رئيس الموساد زامير كألعوبة بين يديه، خدعه كما أراد، وكان فعليًا الترس المركزي في خطة الخداع المصرية".

في النهاية، قدّم مروان تحذيرًا، عند منتصف الليل الذي سبق الهجوم. إنها تلك الجلسة الشهيرة مع زامير في لندن، التي تحوّلت منذ ذلك الحين إلى أسطورة إسرائيلية. أنصاره في مجتمع الاستخبارات – ولديه كثيرون حتى اليوم – يزعمون أن هذا التحذير هو الدليل القاطع على مصداقيته. لكن التحذير الذي قدّمه "الملاك" لم يكن إلا قبل 12 ساعة فقط من الهجوم، في حين كان المصريون يعرفون جيدًا أن إسرائيل تحتاج ما لا يقل عن 48 ساعة لتعزيز قواتها على القناة وإنزال وحدات احتياط هناك، خاصة مع وجود جبهة أخرى في الشمال. كما أن المصريين نصبوا كمينًا لسلاح الجو الإسرائيلي بمنظومات صواريخ أرض–جو على طول القناة، ولم يخشوا من ضربة استباقية. وعندما دخل سلاح الجو إلى المعركة، ورغم أنه كان على أهبة الاستعداد منذ ساعات، تكبّد خسائر فادحة ولم يتمكن من تقديم دعم يُذكر.

إضافة إلى ذلك: التحذير الذي قدّمه مروان في ذلك اللقاء كان بعيدًا عن الحسم الذي جرى تصويره لاحقًا في الكتب والأفلام والمقالات. ففي الحقيقة، واصل "الملاك" خداع الإسرائيليين حتى في تلك الجلسة، واقترح وسيلة قد تُفشل الهجوم: تسريب خبر للصحافة العالمية بأن المصريين على وشك شن هجوم. وابتلع زامير الطُعم أيضًا. قبيل الجلسة التي بدأت صباح يوم الغفران في الساعة 8:05 – أي قبل ست ساعات فقط من الهجوم – كتب زامير إلى غولدا بأن من المفيد تجربة فكرة "الملاك". وقد وجدت الفكرة صدى لدى الحاضرين.

"المصدر الخاص بصفية (تصغير لاسم صبّيكه – أي زامير) يقول إن بالإمكان إحباط الحرب عبر تسريب الخبر"، قال الوزير إسرائيل غاليلي المقرب من غولدا في اجتماع طارئ للحكومة يوم الغفران. "صفية يقترح تجربة ذلك". في الاجتماع اندلع نقاش محتدم: هل ينبغي توجيه ضربة استباقية؟ ما حجم قوات الاحتياط التي ستتم تعبئتها؟ أم لعل اقتراح "الملاك" سيُغني عن كل ذلك؟ "أنا ما زلت أُفكّر"، قالت غولدا ردًا على اقتراح دايان بتعبئة الاحتياط. "أما بشأن الضربة الاستباقية، فالميول موجودة، لكننا سنرى. ماذا لو أخذنا حقًا بنصيحة صديق صفية". وبناءً على تلك النصيحة، كرّست غولدا جزءًا كبيرًا من وقتها صباح ذلك اليوم للقاء سفراء ونقل الرسالة المذكورة.

عند الساعة 13:55، قطعت صفارات الإنذار النقاش. لقد اندلعت الحرب. لم يكن اقتراح "الملاك" ليمنع شيئًا، لكنه حقق غايته: كسب وقت ثمين ضاع على إسرائيل قبل الهجوم. كانت غولدا مائير مذهولة. لسنوات كانت مقتنعة بأنها تعرف ما يجري في مكتب السادات، بفضل "صديق صفية". لكن ذلك الصديق، كما تمتمت غولدا بدهشة بعد بدء الهجوم، كان يقول لها مرارًا إن "السادات يعرف أنه يجب أن يخسر".

مضت السنوات، وتم تحديد المسؤولين عن الإخفاق – بدرجات متفاوتة من العدالة –: رئيس "أمان" إيلي زعيرا ورؤساء شعبة الأبحاث لديه؛ رئيس الأركان دافيد (دادو) إلعازار؛ قائد المنطقة الجنوبية اللواء شموئيل غونين (غورودیش)؛ وزير الدفاع موشيه دايان ورئيسة الوزراء غولدا مائير – وهذه قائمة جزئية فقط. وحده بقي تقريبًا بلا علامات استفهام: أشرف مروان، "الملاك"، أفضل عميل كان للموساد على الإطلاق، وبحسب بعض من غذّوا الأسطورة حوله – أفضل عميل في التاريخ كله.

على مدى السنوات الأربع الماضية، غصنا في أعماق قضية "الملاك". فتشنا في آلاف الوثائق، معظمها من الاستخبارات الخام والمحلّلة من العامين اللذين سبقا الحرب، إضافة إلى محاضر وجداول اجتماعات. التقينا بضباط استخبارات وباحثين، واطّلعنا على مقابلات وتحقيقات داخلية أُجريت حول القضية، بما في ذلك مع أشخاص كان لهم ارتباط مباشر بتشغيل "الملاك". بعضهم يرفض حتى اليوم تصديق أن مروان كان عميل تضليل نجح في خداعهم.

آخرون زعموا في السابق أن هناك شبهات قوية بأن "الملاك" كان عميلاً مزدوجًا، ونشروا ذلك في مقالات وكتب، بينهم أحد موقّعي هذا التحقيق – رونين بيرغمان – الذي كان أول من كشف القضية عام 1998. لكن حتى الآن، لم تكن سوى شبهات، لأن الحجم الكامل للأدلة لم يكن متاحًا. حتى هذا الأسبوع.

بالتوازي مع تحقيق "7 أيام"، جرت سلسلة فحوصات أجراها عدة مسؤولين سابقين في "أمان" والموساد بمبادرة شخصية منهم. قُدّمت خلاصاتهم في منتديات مغلقة لعدد من كبار قادة مجتمع الاستخبارات في العقود الأخيرة. وبعد أن استوعبوا الصدمة، وافق معظمهم على الاستنتاجات.

هذا الأسبوع تكشف "7 أيام" أنه لم يكن "الملاك" "أفضل عميل للموساد"، بل العكس تمامًا: الأدلة تشير بوضوح إلى أن أشرف مروان كان عن قصد جزءًا من عملية خداع شاملة وذكية ساعدت مصر على مفاجأة إسرائيل. كل ذلك حدث أيضًا بسبب سلسلة إخفاقات خطيرة من الموساد في تشغيل "الملاك"، وتجاهل إشارات تحذير واضحة بشأنه. "الملاك" زرع كذلك شعورًا زائفًا بالأمان في "أمان" عامة وفي شعبة الأبحاث خاصة، ولذلك فإن استنتاجات التحقيق تشملهم أيضًا. ولـ"أمان" كما هو معلوم مسؤولية مركزية عن الإخفاق. يضاف إلى ذلك أن أحدًا في شعبة الأبحاث لم يجرؤ على تحدي طريقة تشغيل مروان غير المألوفة رغم الأسئلة التي كانت تتراكم بوضوح من القضية، وهو أمر يصرخ في الوجوه. وكان لدى الجميع أيضًا تلك النزعة الإسرائيلية الفوقية: فكيف يعقل أن يتمكن هؤلاء المصريون من صياغة خداع متقن كهذا، ويخدعون إمبراطورية استخباراتنا؟

حجم المواد التي جُمعت هائل، وسنعرض في الصفحات التالية أبرز ما فيها فقط. وقد حرصنا على الاستناد حصريًا إلى مواد استخباراتية إسرائيلية. كانت هناك منشورات عديدة ومختلفة في العالم العربي بشأن "الملاك" وخداعه، لكن لا يمكن إثبات مصدرها أو التأكد من أنها ليست مفبركة بعد الحدث. وهناك تأكيد آخر مهم: في هذه القضية لا يوجد "مسدس دخان" واحد. ليس هناك مثلًا وثيقة سرية أصلية من الاستخبارات المصرية تثبت أن "الملاك" كان مزروعًا من القاهرة لخداع إسرائيل. لكن، قطعة تلو الأخرى، عندما ننظر إلى كل تفاصيل قصة تشغيل أشرف مروان المدهشة – كما ستُروى في الصفحات التالية، متضمنة اكتشافات عديدة تُنشر لأول مرة هنا – يصعب ألا نصل إلى الاستنتاج أن "ملاك" الموساد كان رأس الحربة في عملية خداع مصرية متقنة.

وللأسف، لقد نجح.

الفصل الثاني: التجنيد

أو: من هذا المزعج الذي يتصل بالسفارة طوال الوقت؟

حي هليوبوليس ("مصر الجديدة") ما يزال حتى اليوم أحد الأحياء الراقية في القاهرة، موطن النخبة المصرية. في عام 1965 استضاف نادي الرياضة الحصري في هليوبوليس مباراة تنس، وكان بين المتفرجين شابان: طالب كيمياء يبلغ 21 عامًا يُدعى أشرف مروان، وفتاة في السابعة عشرة تُدعى منى ناصر، ابنة الرئيس المصري القوي آنذاك، جمال عبد الناصر. التقى الاثنان في المدرج، وبدآ بالخروج معًا، ووقعا في الحب. بعد عام، حين أنهى مروان دراسته الجامعية، تزوج منى، وأصبح الشاب صهر الرئيس.

التحق مروان بالجيش المصري، وبعد نحو عامين انتقل للعمل في مكتب عبد الناصر. وهناك راكم خبرة ومعرفة واسعة في القضايا الاستخباراتية والأمنية والسياسية.

في عام 1968 انتقل الزوجان للعيش في لندن، وبدأ مروان دراسته للحصول على درجة الماجستير في الكيمياء. على ما يبدو، وفق النسخة المتعارف عليها، واجه الزوجان صعوبات مالية، جزئيًا بسبب عادة مروان في القمار، وكان يبحث عن وسيلة لكسب الدخل. في فيلم "الملاك" الذي عرض على نتفليكس، تم سرد قصة مختلفة: إذ كان مروان متأثرًا من المعاملة المهينة التي تلقاها من ناصر ومحيطه.

مهما كانت الأسباب، وفق الادعاء، قرر مروان في منتصف إلى أواخر السبعينيات التواصل مع السفارة الإسرائيلية، وعرض خدماته مقابل أجر. في البداية، تواصل مروان مع السفارة الإسرائيلية في روما، وعندما لم يحصل على رد، اتجه إلى الملحق العسكري في السفارة الإسرائيلية في لندن. هناك أيضًا لم يتلقَ أي استجابة. كان السبب خطأً بيروقراطيًا: ففي مصر، يكون الملحق العسكري في السفارة مسؤولًا أيضًا عن الاستخبارات، وكان مروان يعتقد أن هذا هو الحال في كل الدول. إلا أنه في إسرائيل، الملحق العسكري يركز على العلاقات مع أجهزة الأمن في الدولة المضيفة، وشؤون الاستخبارات يتولاها مسؤولون آخرون. لذلك رفض الملحق العسكري في السفارة مروان مرارًا، معتقدًا أنه مجرد شخص غريب يعد بالعالم وما فيه.

لكن مروان لم يستسلم؛ وعرف متى تم استبدال الملحق، فاتصل بالملحق الجديد. وعندما رفضه أيضًا، حصل مروان على رقم هاتف الملحق في منزله، وبدأ يتصل مرارًا وتكرارًا. في المكالمة الأخيرة، استولت زوجة الملحق الغاضبة على السماعة وهددت بأنها ستتصل بالشرطة إذا اتصل مروان مرة أخرى. توقفت المكالمات، وبدت القضية وكأنها انتهت.

في الوقت نفسه، كانت مصر تشهد تقلبات كبيرة. ففي 28 سبتمبر 1970، توفي ناصر، والد زوجة مروان، إثر أزمة قلبية. تولى خليفته، نائب الرئيس أنور السادات، السلطة، وكان يُنظر إليه على أنه شخص رمادي وخالٍ من الكاريزما. في الاستخبارات الإسرائيلية رأوه ضعيفًا، يتعاطى المخدرات أحيانًا، ولا ينجو في منصبه طويلًا. تعاطف المصريون مع ذكرى القائد المحبوب، وكان السادات بحاجة ماسة لدعم عائلة ناصر. فأقرب مروان إليه ومنحه العديد من المناصب والصلاحيات.

على ما يبدو، لم يكن لدى السادات أدنى فكرة بأن الشاب المفضل الجديد له كان في لندن في الوقت ذاته يطرق أبواب السفارة الإسرائيلية يتوسل ليصبح جاسوسًا، دون جدوى.

في ديسمبر 1970، زار رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية آنذاك، اللواء أهارون يريف، لندن. وبالمصادفة، رافقه شموئيل غورين، القائد السابق للوحدة 504 والذي كان يشغل آنذاك رئيس مركز أوروبا في "المفترق" – قسم تجنيد وتشغيل العملاء في الموساد – مع سيارة من المطار إلى السفارة. كان معهم أيضًا الملحق العسكري في السفارة الإسرائيلية، الذي حكى خلال الرحلة مازحًا عن شخص مصري مزعج، يُدعى أشرف مروان، يتصل بلا توقف ويطلب لقاء.

فهم غورين على الفور من هو هذا الشخص، ولم يضحك. فقد كان جهاز الاستخبارات الإسرائيلي يعرف منذ عدة سنوات اسم صهر ناصر، الذي بدأ يكتسب قوة في القمة المصرية. وكان الموساد يعرف أيضًا حبه للمال السريع. قبل أسابيع قليلة فقط، كتب غورين بحزن أنه لا يوجد أمل في تجنيده. والآن، فجأة، ظهر مروان يريد أن يصبح جاسوسًا.

أمر غورين على الفور بالتواصل مع مروان، وتم تحديد موعد لقاء في فندق رويال لانكستر. قبل اللقاء الأول، أجرى فرع الموساد في لندن تحقيق خلفية عن مروان، وخلص لسبب ما إلى استنتاج خاطئ بأنه لا يتحدث الإنجليزية جيدًا. لذلك قرر الموساد إرسال ضابط تجنيد يتحدث العربية، وكان هناك شخص واحد فقط: دوبي، ضابط شاب خدم في الاستخبارات العسكرية، درس العربية في جهاز الأمن العام، وانتقل إلى الموساد.

"وبالمصادفة"، استعاد دوبي في محادثات داخلية، "ذهبت بعد الظهر إلى فندق رويال لانكستر في لندن، للقاء الذي غيّر التاريخ." بدأ اللقاء، وبحسب ما روى دوبي لاحقًا، كان مروان مذهولًا من طلاقة العربية التي تحدث بها دوبي، لم يبدو له أنه عربي. طلب مروان رؤية جواز دوبي للتأكد من أنه لا يُخدع. وافق دوبي، وهدأ مروان على ما يبدو. وهكذا بدأ الاتصال بـ "الملاك".

بعد وقت قصير من بدء اللقاء، صُدم دوبي: أخرج مروان أمام عينيه مجموعة كبيرة من الأوراق من حقيبته. "اكتب"، طلب مروان، بين الأمر والاقتراح، من ضابطه الجديد نسخ معلومات من الوثائق. كانت مذكرات سرية للغاية للجيش المصري، تتضمن تفاصيل دقيقة عن تنظيم القوات. معظم هذه المعلومات كان معروفًا بالفعل للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية من مصادر أخرى، لكن المصدر الجديد قدم ما يحبه محللو الاستخبارات: معلومات متقاطعة.

عندما سأل دوبي مروان عن الأسلحة الكيميائية في مصر، وهو موضوع كان يقلق إسرائيل آنذاك، فوجئ مروان، لكنه قال إنه سيتحقق من الأمر ويقدمه في اللقاء التالي. كل هذا تم دون أن يحدد الاثنان شروط العلاقة بينهما، أو ما سيحصل عليه مروان مقابل خدماته، ودون أن تفهم إسرائيل حقًا دوافعه.

أشار العديد من خبراء الاستخبارات الذين درسوا قضية "الملاك" إلى هذه النقطة كإشارة تحذير واضحة: يأتي جاسوس إلى لقاء يعتزم فيه بيع أسرار بلده مقابل المال، ولا يناقش الدفع؟ ثم يعد بمزيد من المعلومات، دون أي تفاوض؟ "هذا سهل جدًا"، قال أحد خبراء الاستخبارات، "إنه سعيد بذلك، دون أن يساوم على المخاطر الهائلة التي يتحملها بإخراج هذه الوثائق من مصر وتقديمها للقاء. سلوك غير شائع في هذا المجال."

خلال ذلك الأسبوع، التقى "الملاك" مع دوبي ثلاث مرات، وحصل على مزيد من المعلومات. بعد سلسلة اللقاءات، طلب دوبي من مروان الإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسية: ما هي المجالات السرية التي يمكن الوصول إليها؟ ما هي المناصب والآليات التي ينتمي إليها؟ من في القمة المصرية يمكنه الحصول على المعلومات دون أن يُكتشف كجاسوس؟ وباختصار، كيف يمكن أن يفيد الاستخبارات الإسرائيلية؟

كانت إجابة مروان حلم أي ضابط تشغيل: قدم قائمة ضخمة من المناصب والعلاقات والولوجات، واسعة النطاق ومتنوعة، ووفقًا لمتطلبات الموساد بالضبط. روى مروان، على سبيل المثال، أنه ضمن مهامه السرية كان يقوم بتسليم البريد للرئيس السادات، حيث تمر كل المراسلات عبر مكتبه. هذا يشمل أيضًا نقل أوامر الرئيس لجميع الأجهزة الحكومية وتلقي تقارير استخباراتية منها. بالإضافة إلى ذلك، كان له علاقات سرية مع السفارات المصرية حول العالم، وكان مسؤولًا عن التنسيق بين مصر والمنظمات الفلسطينية وعن إرسال الأموال والأسلحة إليها. كما تولى مسؤولية جهاز الاستخبارات الحزبية، ولاحقًا أصبح منسق العلاقات السرية مع ليبيا.

استمر سرد "الملاك" بأنه يحتفظ بعلاقات شخصية في كل الجيش المصري، ويتلقى معلومات من والده الضابط الكبير ومن أصدقائه، وبالطبع نفوذه يعزز من خلال عائلة زوجته، ابنة ناصر.

في نهاية اللقاء، فاجأ مروان دوبي بعرض طوعي: كان مستعدًا لإرسال تحذيرات عن أي نية لمصر لبدء حرب. تحذير الحرب هو الكأس المقدسة لأي جهاز استخبارات، وها هو يُقدَّم لإسرائيل على طبق من ذهب.

وفق الخبراء، لم يكن هناك في تاريخ الموساد عميل قدم مثل هذا الكم من المعلومات عن هذا العدد الكبير من المجالات، الوكالات، والأشخاص. "كان مثل عشرة جواسيس في واحد من حيث الوصول"، قال أحد كبار ضباط الموساد السابقين.

لكن حتى في الوقت الحقيقي، وبالطبع لاحقًا، كان من المفترض أن تثير هذه الفانتازيا الشاملة شكوكًا وتحذيرات: لا يوجد شخص في نظام استبدادي يمتلك هذا القدر من الوصول، بهذا العمر، ويتحمل هذه المناصب المتعددة.

"كيف يمكن لشخص يقف بجانب السادات أن يكون له فهم عميق في الشؤون العسكرية ووصول إلى أي وثيقة؟ هذه ليست وثائق متاحة في مكتب الرئيس."

وكما قال ضابط سابق شارك في تشغيل مروان، "هذه قائمة لم أرَ مثلها من قبل. لو رآها أي من المخضرمين، لكان واضحًا أن هناك شيء غير طبيعي." وكل هذا كان حتى ذلك الوقت دون مقابل.

تمت مراجعة كل المعلومات التي قدمها "الملاك" من قبل الاستخبارات العسكرية، وأكدوا دقتها. معظمها كان معروفًا مسبقًا لإسرائيل، لكن مجتمع الاستخبارات اعتبر ذلك دليلاً على مصداقيته. "الملاك" اجتاز الاختبار، وتم تجنيده كعميل، وبدأت نجوميته – ونجومية ضابطه دوبي – بالارتفاع.

يصف زيمير نفسه في كتابه علاقات الصداقة والأخوة التي نشأت بينه وبين مروان: "لم نكن أصدقاء. ربما مصطلح 'رفيق' هو الأنسب، كانت بيننا كيمياء. أعتقد أنه كان يقدرني ويحترمني". وفي موضع آخر كتب: "كنت بالنسبة له شريكًا. من وجهة نظره كنت نوعًا من الشريك المفيد". وهذا ربما صحيح؛ السؤال هو، شريك مفيد لمن.

يصف دوقّي في المحادثات الداخلية علاقة أكثر تعقيدًا: "[زيمير] انجذب إلى ذلك، لقد أُعجب بالشاب، بطبيعة الوضع الذي جلس معه". ومع ذلك، زيمير، الذي وصل إلى رئاسة الموساد من الجيش الإسرائيلي، لم يُشغل عملاء أبدًا. قال دوقّي: "تسفيكا لم يفهم شيئًا عن العملاء، لم يرَ عميلًا بعينيه أبدًا، لم يتحدث مع أي عميل. لا شيء. لكن... دخل إلى اجتماعنا وكان واضحًا بالنسبة لي أنه سُحر منذ البداية... حتى مروان أُعجب. هذا أطر له كثيرًا ووجد أنه من الجميل أن يصل رئيس الموساد إليه في مرحلة مبكرة جدًا. من المؤكد أنه شخص مهم جدًا".

وكان لذلك تأثير فوري: رفع مروان الأجر. قال دوقّي: "وجود زيمير رفع، بالمناسبة، سعر التشغيل لاحقًا كثيرًا".

سأل أحد الحاضرين في الاجتماعات: "وما كان دورك في التشغيل؟"

أجاب دوقّي: "في الاجتماعات التي حضرها تسفيكا - تقريبًا لا شيء. كنت أجلس بجانبه وأسجل فقط كما يفعل 'رايبر' (مصطلح ألماني يعني كاتب متخصص). لم أشارك في إدارة الاجتماع. بالكاد تدخلت. كنت أجلس بجانب تسفيكا وأدعوه يفعل ما يريد. هو يتولى القيادة... على أي حال، المسؤولية كانت على تسفيكا، ومن اللحظة التي يبدأ فيها الاجتماع أكون في دور الانطباع والتقرير".

وفقًا لدوقّي، تساءل كبار في الموساد عن كيفية حصول ضابط صغير مثل دوقّي على "الملاك" وجروا محاولات لإقناع زيمير بتغييره. قال دوقّي في محادثاته الداخلية: "كل هذا كان محرجًا جدًا بالنسبة لي، كأنه لا يثقون بي وأنا كنت أعلم أن الاعتبارات ليست نقية". لكن من أظهر ولاءً استثنائيًا لدوقّي كان عميلـه. قاتل مروان ليبقى مع مشغّله. "[مروان] قال لهم: إذا أدخلتم لي شخصًا آخر هنا فلن أقبله وسأغادر. شكرًا لكم".

قال "الملاك" وفعل. خلال إحدى الاجتماعات بين دوقّي و"الملاك" في بيت الأمان للموساد، حاول زيمير إدخال مشغّل عملاء أسطوري في المنظمة، من مواليد العراق. قال دوقّي في شهادته: "وعندما رأى مروان فجأة ذلك الشاب الداكن يدخل، استدار ولم ينظر إليه. حاول المشغّل أن يكون لطيفًا ووضع مئزرًا وبدأ بتنظيف الأكواب المتسخة في الحوض، لكن هذا الأخير كان ينظر جانبيًا طوال الوقت".

في مرحلة ما، أدرك المشغّل أنه لن يخرج شيء من الاجتماع وغادر البيت الأمن. خرج مروان من غرفة الاجتماعات وانقض على زيمير: "توجه إلى رئيس الموساد وقال له 'ماذا فعلت بي؟ لماذا أحضرت لي عربي؟' وزيمير لم يعرف هل يضحك أم يبكي. 'أي عربي؟ إنه من عندنا'. ومروان أصر: 'إنه ليس منكم. إنه عراقي'".

حاول رئيس الموساد خوفي، الذي حل محل زيمير، مرة أخرى استبدال المشغّل، لكن التفاعل كان نفسه. فهم "الملاك" أنه مع دوقّي، الذي لا يثير الشكوك ولا يسأل كثيرًا، سيكون له الراحة. وهكذا بقي دوقّي المشغّل الرسمي الوحيد لمروان لمدة 27 عامًا.

خلال الفترة نفسها، كان هناك أصوات مشككة في الموساد بشأن مروان، خاصة من القدامى وكبار المنظمة. كيف يمكن أن يصبح عريس الرئيس ناصر عميلًا للموساد بمبادرته، ويجلب كل هذه الوثائق السرية؟ تساءلوا. وقال رافي إيتان، من كبار الموساد: "كل هذا كان يبدو خياليًا جدًا". وقال رافي ميدان، رئيس فرع لندن للموساد عام 1973: "الاستخبارات البريطانية كانت تراقبه على مدار الساعة، ومع ذلك لم يتواجد بمسافة ثلاثة شوارع، بل وصل بسيارات تحمل لوحات دبلوماسية حتى داخل بيوت الأمان، حيث كنا نلتقي به. هذا لا يتصرف به شخص لديه ما يخفيه، وإذا انكشف، ولا يمكن التأكد أن البريطانيين لن يخبروا المصريين، قد يُقبض عليه ويواجه خطر حياته".

وكان هناك إنذار آخر. بجانب عمله مع إسرائيل - كما اكتشف الموساد سريعًا - كان "الملاك" يعمل بدون إذن من أولئك الذين يدفعون له أموالًا ضخمة، مع سلسلة من أجهزة المخابرات حول العالم، بما في ذلك CIA، الاستخبارات البريطانية، الإيطالية، السعودية والفرنسية، والقائمة لا تنتهي. قال دوقّي: "في أحد الأيام وصلت إلى فندق، وأخرج رأسه من الغرفة وقال بفخر أن علي الانتظار قليلاً لأنه يتحدث مع رئيس فرع CIA".

سأل أحد شركاء دوقّي: "أليس هذا يهز قاعدة تشغيله، أن يكون مرتبطًا مع الجميع ويتحدث مع الجميع؟" أجاب دوقّي ببساطة وصدق: "لا، لا أعتقد. لأنه عميل خاص. انظر، هذا العميل يملي أكثر منك كيف سيتصرف".

"كان لديه ثقة بالنفس مفرطة يصعب تفسيرها"، حاول دوقّي أن يوضح. "في أحد الأيام سألته عن تقارير سرية جدًا حصل عليها من مصر، فسألته: كيف حصلت عليها من مصر؟ فقال بأكبر قدر من الغرور: 'هل تعتقد أن أحدًا يبحث عني؟ لن يبحث أحد عني. من يجرؤ على البحث عني؟'"

لكن أحيانًا كان "الملاك" يتصرف بعكس ذلك ويخاف على نفسه بشكل مفرط. على سبيل المثال، قبل أن يأخذ جهاز لاسلكي من الموساد ويعبر به مطار القاهرة، لكنه ادعى لاحقًا أنه رماه في النيل خوفًا من الانكشاف. وبهذه الطريقة، لم يكن الموساد قادرًا على الاتصال بمروان، كما في الأيام التي سبقت الحرب، وكان يعتمد فقط على مبادرته.

الفصل الرابع: الخداع

أو: "كثرة الذئاب تغفل عن الحرب"

تقدمت التحضيرات المصرية لـ "الأبراج العالية". الهدف الرئيسي لخطة الخداع المصرية كان التأكد من دخول إسرائيل آخر 48 ساعة قبل ساعة الصفر دون أن تعلم أن السادات مستعد لشن هجوم.

كانت الخطة كما يلي: بدءًا من يونيو 1972، بدأ "الملاك" بإرسال سلسلة طويلة من التحذيرات بالحرب، جميعها – باستثناء الأخيرة في الليلة السابقة – كانت تحذيرات وهمية.

بالرجوع للخلف، يبدو أن المخابرات المصرية كانت تريد تحقيق هدفين: الأول، إضعاف إسرائيل. بعد كل مرة تصرخ فيها المنظومة "ذئب ذئب" دون أن يظهر الذئب، عندما يظهر فعليًا لن يلتفت إليه أحد. وهذا ما حدث بالفعل. الهدف الثاني هو مراقبة رد فعل إسرائيل عند الاستنفار: كم يستغرق تعبئة الاحتياط؟ نقل القوات جنوبًا؟ كل هذه معلومات حاسمة للمصريين الذين يفهمون أنهم بحاجة للدهشة في الوقت الفعلي لمدة 48 ساعة.

أول مرة حذر "الملاك" المخابرات الإسرائيلية كانت في 21 يونيو 1972. أبلغ مروان مشغّله أنه "يقدّر" أن السادات سيبدأ الحرب حتى مارس 1973. "تقديرات" مروان كانت جزءًا أساسيًا من خطة الخداع: المعلومات الدقيقة عن الجيش المصري ووحداته قدمها عبر وثائق سرية؛ أما تقديراته حول موعد الحرب، فكانت شفوية دائمًا وبناءً على "معرفته" المزعومة بطبيعة السادات المتقلبة وغير الحاسمة.

لاحقًا، أرسل "الملاك" المزيد من التحذيرات: 31 أكتوبر 1972، ثم نهاية ديسمبر، ثم "ربما" فبراير 1973. كل هذه التحذيرات، رغم أن زيمير كان مقتنعًا لاحقًا باندلاع الحرب، لم تهز الجيش الإسرائيلي كثيرًا لأن معلومات "الملاك" لم يكن لها مصادر مؤكدة. المصريون فهموا أنه، رغم أن "الملاك" يبدو موثوقًا لدى إسرائيل، إلا أنه وحده لا يكفي، لذا بدأوا نشر معلومات عن الحرب من مصادر أخرى.

في 11 أبريل 1973، أبلغ مروان مرة أخرى عن "استعدادات لاستئناف القتال": "السادات حدد بداية الهجوم في 14 أبريل"، لكن بحسب "الملاك" "أقنعه مستشاروه بتأجيل الموعد لشهر". بحسبه، سيكون موعد الحرب في مايو 1973. من هذه اللحظة، دخلت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في دوامة محاولة فهم إذا ما كان السادات بالفعل مستعدًا للحرب قريبًا.

في منتصف يونيو، التقى السادات وأسَد لمناقشة خطط الحرب. انتظر مروان حوالي شهر – حتى 13 يوليو – ليبلغ مشغّله بتفاصيل الاجتماع. هذه إحدى المعلومات القليلة التي تبين صحتها في تلك الأيام.

الفصل الخامس: الحرب

أو: "اليوم يسمونه غازلايتينغ"

كانت الساعة التاسعة والنصف مساء 4 أكتوبر 1973 عندما رن هاتف فرع الموساد في لندن. على الخط كان "الملاك"، وطلب التحدث مع مشغّله دوفّي. تم تحديد الاتصال لاحقًا الساعة العاشرة والنصف. في إسرائيل، كان نصف ساعة قبل منتصف الليل.

"كان محاطًا بالناس"، استذكر دوفّي، "وقال فقط: 'انظر يا أليكس، لا أستطيع التحدث، هناك أشخاص يسمعونني. لكن أردت أن أخبرك أن هناك مواد كيميائية، الكثير من المواد الكيماوية وأطلب مقابلة المدير غدًا في لندن'".

"المدير العام للشركة" كان بالطبع رئيس الموساد زيمير. كانت "المواد الكيميائية" رمزًا لقائمة إنذارات الحرب، والكود الخاص بالتحذير من حرب وشيكة كان "بوتاسيوم". لم يذكر مروان الكلمة بالذات.

نقل دوفّي إلى إسرائيل برقية تفيد بأن "الملاك" يريد تسليم معلومات عن "المواد الكيميائية التي بحوزته". لتوضيح، كتب دوفّي أن هذه القائمة هي رمز التحذير.

زيمير ودوفّي انتظروا في بيت الأمان بلندن. على عكس عادته، تأخر "الملاك" ساعتين ونصف وبدأ الاجتماع حوالي الساعة الحادية عشرة إلا ربع. كل مشغّل في هذا الوضع كان سيبدأ بسؤال بسيط: "متى ستبدأ الحرب؟"، لكن بحسب دوفّي، زيمير لم يكن متوترًا على الإطلاق وبدأ بسؤال عن موضوعات أخرى، بعضها دبلوماسي.

بدأ تسفيكا الاجتماع بمحاولة استجواب مروان عن الاتحاد الثلاثي بين مصر، ليبيا وسوريا. موضوع مهم جدًا. قال مروان إنه لا يفهم لماذا يتم التحدث عن ذلك، وقال لتسفيكا إنه مخطئ، ليس له أي أهمية.

ثم قال مروان إنه لا يفهم لماذا الحديث عن التأخير الثلاثي، لأنه جاء ليحدث عن الحرب غدًا... كانت ملامح زيمير مصدومة للغاية. قال زيمير لمروان: "أي حرب غدًا؟ عن ماذا تتحدث؟"

عندما سأل زيمير أخيرًا متى ستندلع الحرب، أجاب "الملاك": إما الساعة الرابعة بعد الظهر، أو "قبل الغروب مباشرة"، كما ورد في الملاحظات المكتوبة بخط اليد. صعوبة التخطيط العسكري الحديث بهذا الوصف واضحة، كما يعلق أحد كبار المسؤولين الذين درسوا الموضوع.

خرج زيمير لنقل المعلومات إلى إسرائيل، لكنه لم يقتنع بعد بأن الحرب ستندلع. قرر عدم استخدام السيارات المجهزة خارج بيت الأمان والمشي في منتصف الليل في لندن للتشاور عما يجب فعله. "كان غير متأكد من أن الحرب ستندلع، وكان متحمسًا جدًا للاجتماعات مع مروان، فلم يكن يعرف سبب قدومه أصلاً"، كما شهد دوفّي.

نجح "الملاك" في مهمته. استطاع إرباك إسرائيل وكسب ساعات ثمينة لمصر لتحقيق عنصر المفاجأة. في الوقت نفسه، حافظ على مكانته كأفضل عميل، للمهام التي كان يعرف أنها في انتظاره لاحقًا.

وإذا كان المشغّل يجلس مع عميله لأكثر من ساعتين في مساء يوم الحرب، يمكن الافتراض أن أحد الأسئلة التي كان يجب أن تُطرح هو: "منذ متى تعلم بموعد اندلاع الحرب؟" من المرجح أن "الملاك" كان يكذب، لكن هذا سؤال كان لابد من طرحه. كتب زيمير في كتابه: "لم أسأله 'متى عرفت؟' أيضًا، أولًا لأن ذلك لم يكن ليغيّر شيئًا، وثانيًا لأنني لم أرَ أي فائدة من الدخول في نقاش قد يخلق توترًا بيننا". يبدو أن زيمير كان يؤمن بإدارة العملاء بلطف، دون استفزازهم: "لم أسأل أبدًا لماذا اختار أن يأتي إلينا. حرصت على عدم طرح أسئلة ليست مهمة لمهمتي، والتي قد تخلق جوًا من الشك خلال اللقاء. كانت هذه شراكة مصيرية غريبة بين شخصين اجتمعا على طرفي طاولة واحدة. ومع ذلك، تطورت علاقات الاحترام المتبادل والثقة بيننا". وهذه، على ما يبدو، طريقة أخرى لرؤية الأمور.

في الساعة 13:55 ظهر يوم 6 أكتوبر اندلعت الحرب. وفقًا لخطة السادات، كان على مروان الآن تحقيق هدفه الثاني: إنهاء الحرب بأسرع ما يمكن وبأفضل الشروط لمصر. لم يساعد إسرائيل بمعلومات استخبارية حاسمة خلال الحرب، مثل المعلومات التي نقلها "جوليات" في 12 أكتوبر حول هجوم فرقتين مصريتين إلى عمق سيناء.

فقط في 19 أكتوبر، بينما كانت المعارك في أوجها لكن اليد الإسرائيلية بدأت تسيطر، استدعى مروان زيمير مرة أخرى، هذه المرة في باريس. بدأ اللقاء بسلسلة من احتجاجات "الملاك": أظهر خيبة أمل لأن إسرائيل لم تستجب لتحذيراته الواضحة، وأعرب عن استيائه لأنه رغم نقل كل المعلومات، فوجئت إسرائيل. زيمير، على الأقل تجاه مروان، كان متعاطفًا مع هذا: كرئيس للموساد، قام بواجبه ونقل التحذير. من فشلوا هم باقي الأطراف.

بعد ذلك، وعندما أدرك أنه وزيمير على نفس المنوال الفكري، حاول "الملاك" بصفته رسول السادات إنهاء الحرب بسرعة عبر تقديم معلومات صادمة: لمصر 400 صاروخ سكود موجهة إلى تل أبيب، والسادات يخطط لحرب طويلة. بحسبه، السادات لا يخشى وصول قوات الجيش الإسرائيلي حتى دلتا النيل: إذا حدث ذلك، خلف كل محادثة سيقف جندي مصري، وستتحول الدلتا إلى مقبرة للجيش الإسرائيلي. السادات لا يرى ضرورة لوقف إطلاق النار، وكان أمام إسرائيل خياران فقط لإنهاء الحرب: "إما أن الجيش المصري كله لا يكون موجودًا، أو على الأقل السادات لا يكون موجودًا".

كان مروان يعرف أن كل هذا كذب، وأن السادات يأمل، وفق خطة "الأبراج العالية"، في الصمود قليلًا خلف القناة، ثم أن ينقذه اتفاق وقف إطلاق النار من سحق إسرائيلي.

عاد زيمير إلى إسرائيل والتقى برئيس الحكومة مئير في اليوم التالي. للمعلومات التي نقلها "الملاك" كان تأثير كبير على اتخاذ القرار في القيادة الأمنية العليا. قال وزير الدفاع دايان فورًا إنه من غير المنطقي أن يكون لدى مصر 400 صاروخ سكود – إسرائيل كانت تعرف عن 20 صاروخًا على الأكثر، وحتى هذه لم تكن مؤكدة أنها صالحة للتشغيل – لكن بعد المفاجأة قبل أسبوعين، كان هناك خوف من المجازفة. وبالنظر إلى الوراء، تبين أن المعلومات الأصلية دقيقة، وقصة الصواريخ لم تكن صحيحة. لكن نتيجة أقوال مروان قرر دايان إلغاء هجوم إسرائيلي كان يهدف للاستيلاء على بورت فؤاد شمال القناة. كما استخدمت هذه المعلومات كأساس لتقديرات الأجهزة الأمنية بأن إسرائيل لن تتمكن من الصمود في حرب استنزاف طويلة ويجب أن تحقق وقف إطلاق النار بسرعة. في 25 أكتوبر، رغم معارضة بعض الأطراف في الجيش، دخل اتفاق وقف إطلاق النار حيز التنفيذ. "الملاك" نجح. مرة أخرى.

بعد ثلاثة أيام، التقى زيمير به مرة أخرى في عاصمة أوروبية. كانت مصر في موقف صعب: رغم توقف النار، كانت الفرقة الثالثة للسادات محاصرة، والجيش الإسرائيلي داخل الأراضي المصرية. استغل مروان الوضع لإيصال رسالة مضللة من السادات إلى جولدا: أرسل طمأنة كاملة من الجانب المصري، وأصر أن القاهرة "لا ترى في مسألة الفرقة الثالثة أي شيء قد يضر بمصر". شرح "الملاك" أن هناك التزامًا أمريكيًا بعدم تدمير الفرقة، وإذا اندلعت المعارك، "الفرقة ستقاتل وتتسبب بخسائر لإسرائيل وتقوم بدورها". التقيا مرة أخرى في اليوم التالي. لم يسأل أحد في الموساد كيف يمكن لمروان، الرجل القريب جدًا من السادات، أن يسافر خلال الحرب لعقد لقاءين في أوروبا ويخصص وقته للقاء رئيس الموساد.

نقل زيمير الرسالة إلى الحكومة في 30 أكتوبر، لكنه كان أكثر تشككًا تجاه "الملاك" الخاص به: "انطباعي أن الأمور لا تغطيها أي معلومات من مصر"، قال. في 18 يناير 1974 تم توقيع اتفاق فصل القوات بين إسرائيل ومصر، والذي تضمن انسحاب القوات الإسرائيلية خلف ضفاف القناة، وفرّت الفرقة الثالثة. هكذا، حين كانت مصر تحت الضغط وإسرائيل تسيطر، نجح "الملاك" للمرة الأخيرة خلال الحرب في التأثير ولو قليلاً على اتخاذ القرار في إسرائيل لصالح بلاده.

استمرت إدارة "الملاك" حتى حوالي عام 1997، لكن مع مرور الوقت تراجعت أهميته، وبالتأكيد بعد اغتيال السادات عام 1981 في استعراض ذكرى النصر يوم 6 أكتوبر. لم يعد "الملاك" يقيم في مصر، وأصبح رجل أعمال ناجحًا، خاصة في مجال الأسلحة. تم الكشف عن هويته على يد المؤرخ د. روني بيرجمان (لا توجد صلة عائلية) عام 2004، ونشرت في غلاف صحيفة "الأهرام"، أهم الصحف المصرية.

على الرغم من أنه كتب أنه ساعد إسرائيل، وبالتالي يعتبر خائنًا في بلده، إلا أن مروان ظل شخصية مهمة جدًا في مصر. كل عام كان يمثل عائلة ناصر في عرض 6 أكتوبر، واستقبل الرئيس مبارك بجوار القبر. وزير الخارجية المصري، عمرو موسى، حتى زوج ابنته بابن مروان.

في 27 يونيو 2007، كان "الملاك" في شقته الفاخرة في لندن قرب ميدان بيكاديللي. حوالي الساعة 13:30 ظهرًا، تم اكتشاف جثته في حديقة الورود تحت الشرفة.

لم تُوضح أبدًا أسباب موته الغامضة: قتل، انتحار، أم حادث؟ كبار سابقون في الاستخبارات الإسرائيلية يعتقدون أن السبب هو معمر القذافي، الذي فهم من يطعنه آنذاك في روما وقرر الانتقام.

كان الرئيس مبارك أثناء جنازته في رحلة إلى أفريقيا. جمع جميع الصحفيين في الطائرة وقال إن مروان كان شخصًا له مساهمة خاصة وغير مسبوقة في الأمن المصري. أمر مبارك بإقامة جنازة كبيرة وفخمة لم يشهد لها مثيل منذ اغتيال السادات، بحضور جميع القيادات المصرية – العسكرية، الاستخباراتية والسياسية – حدادًا وتقديرًا لأهميته وعظمته. الشخص الذي كان من المفترض أن يُشهر به كخائن في بلده، حظي بتقدير قليل ممن يحصلون عليه، ودُفن في بلده كبطل وطني.

الموساد: "تحريف الواقع التاريخي"

فضل الموساد عدم الرد على قائمة الأسئلة المفصلة التي أُرسلت إليهم، وبدلًا من ذلك أرسلوا الرد التالي:

'"الملاك' كان مصدرًا استخباراتيًا استراتيجيًا في السبعينيات، قدم لإسرائيل معلومات استخبارية دقيقة وموثوقة في القضايا الأمنية والسياسية، بما في ذلك معلومات حول تصاعد الجيوش المصرية والسورية، وتحذيرات إرهابية ثبت صحتها. على مر السنين، درست أجهزة البحث والمؤرخون في الموساد وأمان مدى موثوقية تقارير 'الملاك'. كما أن لجنة مشتركة بين الأجهزة فحصت الادعاءات، ولم يتم العثور على أي دليل على أن 'الملاك' كان 'عميلًا مزدوجًا' أو جزءًا من خطة خداع مصرية قبل حرب يوم الغفران.

"في النهاية، قبل ساعات عديدة من بدء الحرب، بفضل تقريره، تم تلقي تحذير حقيقي أتاح بدء الاستعداد لهجوم مفاجئ.

"باختصار، كان 'الملاك' مصدرًا موثوقًا وظهر تأثيره المهني عند لحظة الحقيقة. المشكلة لم تكن في المصدر أو تقاريره، بل في الخطوات التي اتُخذت بعد ذلك. في هذه الحالة وُضعت معلومات دقيقة وموثوقة أمام صناع القرار، الذين قرروا الانتظار. كل شيء آخر يخص التاريخ".

https://www.ynet.co.il/news/article/yokra14521445